دلالات ذكر الطير في الشعر العربي: دراسة تحليلية

The Significance of Mentioning Birds in Arabic Poetry: An Analytical Study

د. بول دينق شول: أستاذ مشارك بكلية التربية، جامعة جوبا، دولة جنوب السودان.

Dr. Bol Deng Chol Nyiker*: Associate Professor, Faculty of Education, University of Juba, Republic of South Sudan.*

Email: dengbol66@gmail.com

DOI https://doi.org/10.56989/benkj.v6i10.2125

تاريخ الاستلام: 2026-08-06 تاريخ القبول: 2026-08-28 تاريخ النشر 2026-10-01

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن أبرز الدلالات والمضامين التي ارتبط بها ذكر الطير في الشعر العربي، وبيان الأبعاد الفنية والوجدانية والفكرية التي اكتسبها توظيفه في التعبير عن تجارب الإنسان ومشاعره وتفاعله مع البيئة والمجتمع، وتنبع أهمية الدراسة من تنوع الدلالات التي ارتبطت بالطير، ومن صلته الوثيقة بالإنسان وحركته الحياتية في بيئات مختلفة، وما يعكسه حضوره في الشعر من مواقف واتجاهات وجدانية وفكرية. ولتحقيق أهداف الدراسة، اعتمد الباحث المنهج الوصفي التحليلي، من خلال تتبع نماذج شعرية متنوعة وتحليل دلالات حضور الطير فيها، والكشف عن المعاني التي أسندها الشعراء إليه، والوقوف على كيفية توظيفه في التعبير عن تجاربهم ورؤاهم المختلفة. وقد توصلت الدراسة إلى أن الشعراء وجدوا في الطير عنصرًا فنيًا ورمزيًا مناسبًا للتعبير عن كوامن النفس والوجدان، وتجسيد عدد من المعاني والدلالات، من أبرزها: حب الطبيعة والجمال، وحب الأوطان والانتماء إليها، والرغبة في الحرية والانعتاق، والفخر والشجاعة، والإيمان بعظمة الله وقدرته، فضلًا عن توظيف الطير في تقديم الحكم والمواعظ والتحذير من الوقوع في شباك المخادعين الذين يتدثرون بثياب الدين لخداع الآخرين. كما أظهرت الدراسة أن حضور الطير في الشعر العربي لم يكن عابرًا أو مجرد وصف للطبيعة، وإنما جاء بوصفه وسيلة تعبيرية ذات دلالات متعددة، أسهمت في إثراء التجربة الشعرية وتعميق أبعادها الإنسانية والفنية.

الكلمات المفتاحية: الطير، الشعر العربي، دلالات الطير، الرمزية، حب الطبيعة، حب الوطن، الحرية، الفخر والشجاعة، الإيمان، الخداع.

Abstract:

This study aims to identify the most prominent significations and themes associated with the mention of birds in Arabic poetry and to examine the artistic, emotional, and intellectual dimensions that their use has acquired in expressing human experiences and emotions, as well as human interaction with the environment and society. The significance of the study stems from the diversity of meanings associated with birds and their close connection to human life and experiences in different environments, as well as from the emotional and intellectual attitudes reflected by their presence in poetry. To achieve the objectives of the study, the researcher adopted the descriptive-analytical approach by examining a variety of poetic examples, analyzing the significations of birds' presence in them, identifying the meanings attributed to birds by poets, and exploring how they were employed to express their diverse experiences and visions. The study found that poets regarded birds as an appropriate artistic and symbolic element for expressing inner feelings and emotions and embodying a range of meanings and significations, most notably love of nature and beauty, love of the homeland and sense of belonging, the desire for freedom and liberation, pride and courage, and faith in the greatness and power of God. Birds were also employed to convey wisdom and moral lessons and to warn against falling into the traps of deceivers who disguise themselves in religious guise to deceive others. The study further demonstrates that the presence of birds in Arabic poetry was neither incidental nor merely a form of describing nature; rather, birds served as an expressive medium with multiple significations that enriched the poetic experience and deepened its human and artistic dimensions.

Keywords: Birds, Arabic Poetry, Bird Symbolism, Symbolism, Nature, Homeland, Freedom, Pride and Courage, Faith, Deception.

المقدمة:

ورد ذكر الطير في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي بمختلف أشكاله وأنواعه؛ إذ تعلّق به العربي تعلقًا كبيرًا، وجرى ذكره على ألسنة الشعراء، بل نسج الشاعر الجاهلي حول الطير بعض القصص الخرافية، فضلًا عن الجانب الوجداني والرومانسي الذي وظّفه في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه وأغراضه الشعرية. ومن الطيور التي ذكرها العرب: الغراب، والبوم، والهدهد، والحمام، والنسر، والعقاب، وغير ذلك من الطيور التي حضرت في أشعارهم وحملت دلالات متعددة.

ولا يطيب المضي في هذا الحديث دون الإشارة إلى بعض القصص الخرافية التي نسجها العرب حول الطيور، والتي اكتظ بها الشعر الجاهلي، كما تناول الشاعر الجاهلي الجانب الوجداني والرومانسي، ووظّف الشعر للتعبير عن أغراضه وأحاسيسه المختلفة. ولعل هذا النوع من التوظيف الشعري كان أكثر حضورًا من التوظيف الخرافي القصصي للطير.

وفي العصور التالية، ولا سيما العصر العباسي والعصر الحديث، نظم الشعراء قصائد كثيرة وظّفوا فيها الطير لأغراض شتى، ومعانٍ متعددة ومختلفة؛ فتارةً أصبح الطير رمزًا للحرية والانعتاق، وتعزيز المشاعر الوطنية وحب الوطن، وتارةً أخرى استُخدم للتعبير عن الحذر من شباك الخداع والنفاق، فضلًا عن التعبير عن غير ذلك من المشاعر والقضايا الحياتية التي عبّر عنها الشعراء من خلال رمزية الطير.

وصفوة القول، إن الدلالات التي حملتها رمزية الطير في الشعر العربي تكشف عن ديناميكية الإنسان العربي وتفاعله الواعي مع قضايا محيطه، وعن قدرته الإبداعية على توظيف عناصر الطبيعة في التعبير عن أفكاره ومشاعره وتجربته الإنسانية.

مشكلة البحث:

تتشكّل مشكلة البحث حول تساؤلات أساسية، من أبرزها: لماذا استخدم العرب، عبر العصور، الطير في أشعارهم؟ وماذا يعني استخدامه في مجالات الحياة المختلفة؟ وما الدروس المستخلصة أو المستفادة من توظيف الطير في الشعر العربي؟ وهل سيستمر الشعراء العرب في استخدام رمزية الطير في أشعارهم مع تقدّم العصر وتجدّد مستجداته ومتغيراته؟

فرضية البحث:

إنَّ توظيف الطير في الشعر العربي لم يكن توظيفًا عابرًا أو عشوائيًا، وإنما حمل دلالات ورموزًا متعددة ارتبطت بجوانب فكرية ووجدانية واجتماعية ووطنية، وأن الكشف عن هذه الدلالات يسهم في تعزيز الوعي بأهمية الرمز في الشعر العربي وفهم أبعاده المختلفة.

أهداف البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى:

1. تسليط الضوء على استخدام العرب للطير في أشعارهم في مختلف العصور.
2. تبيين بعض المجالات التي استُخدم فيها الطير في الشعر العربي.
3. الكشف عن الدلالات والمعاني التي حملتها رمزية الطير في الشعر العربي.
4. بيان الدروس والعبر المستفادة من هذه الاستخدامات الشعرية.
5. إبراز قدرة الشعر العربي على توظيف الرموز الطبيعية في التعبير عن القضايا الإنسانية والاجتماعية والوطنية.

أهمية البحث:

تنبع أهمية هذه الدراسة من عدة اعتبارات، من أبرزها:

1. أهمية الموضوعات والقضايا التي تناولها الشعر العربي من خلال رمزية الطير.
2. أهمية الطير في الثقافة العربية، وما ارتبط به من دلالات ورموز، مما دفع الشعراء إلى توظيفه في أشعارهم.
3. تنوع البنية الفكرية والحسية لدى الإنسان العربي، مما جعله يتفاعل مع مختلف الموضوعات والقضايا ويعبّر عنها شعريًا من خلال رمزية الطير.
4. التأكيد على اهتمام الشعراء العرب بالموضوعات الحياتية والإنسانية التي ظهرت في الشعر من خلال توظيف رمزية الطير.
5. بيان شمولية الدروس المستفادة من الشعر الذي وظّف رمزية الطير، وأن هذه الدلالات لا تقتصر على المحيط العربي وحده، وإن كان هذا المحيط يمثل المنبع الرئيس لهذا الشعر.

منهج البحث:

استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي؛ لوصف مجالات استخدام الطير في الشعر العربي، وتحليل ما ارتبط بهذا الاستخدام من دلالات ورموز ومعانٍ، وفقًا لما تقتضيه طبيعة الظاهرة المدروسة، وهي توظيف الطير في الشعر العربي عبر العصور المختلفة.

مصادر ومراجع البحث:

اعتمد البحث على مجموعة من المصادر والمراجع، من بينها الكتب الأدبية والتراثية، والبحوث العلمية المحكمة، والرسائل الجامعية، وبعض الكتب والمناهج ذات الصلة بموضوع الدراسة، إلى جانب المصادر التي تناولت الطير ورمزيته في الأدب العربي.

حدود البحث:

تشتمل الحدود الزمانية للبحث على الفترة الممتدة من العصر الجاهلي إلى الوقت الحاضر.

أما الحدود المكانية، فتنحصر في الأقطار العربية في صورتها الجغرافية الحالية، وبخاصة البيئات التي تُستخدم فيها اللغة العربية وسيلةً للتعبير والتواصل العام، مع التركيز على الشعر العربي الذي وظّف رمزية الطير ودلالاته.

المطلب الأول: قصص الطيور في الشعر الجاهلي

أولاً: قصة الهدهد

زعم العرب أنَّ الهدهد الذي على رأسه القنزعة، ثوابٌ من الله تعالى له، على ما كان منه من برٍ لأمه لما ماتت، فحملها على رأسه، يقول ابن قتيبة: وكانوا يقولون إنَّ الهدهد لما ماتت أمه أراد أن يبرَّها، فجعلها على رأسه يطلب موضعًا لدفنها، فبقيت على رأسه، فالقنزعة التي في رأسه هو قبرها، وقد صاغ أمية ابن أبي الصلت هذه الأسطورة شعرًا بقوله (داميلي، 2019، ص3):

غيم وظلماء، وفضل سحابة ** إذ كان كفن واستراد الهدهد
يبغى القرار لأمه ليجنها ** فبنى عليها فى قفاه يعهد
مهدا وطينا فاستغَل بحمله ** فى الطير يحملها ولا يتأود
من أمه فجرى يصالح حملها ** ولد وكلف ظهره لا تعقد
فتراه يدلح ما مشى بجنازه ** منها وما اختلف الجديد المسند

ثانيا: قصة الهديل:

هو فرخ حمام كان على عهد نوح، كما زعم العرب. فمات عطشًا أو صاده جارح، وأنَّ كل حمامة تبكي عليه ولا تملّ، وندعوه ولا يجيب، وقد صاغ المعرّي ذلك شعرًا في قوله (داميلي، 2019، ص3):

أبنات الهديل اسعدن أوعد *** قليل العزاء بالإسعاد
ايه لله دركن فانتن اللاتي *** يحسن حفظ الوداد
ما نسيتن هالكا من الأوان الخالي *** أودى قبل هلك اياد
بيد أنى لا أرضى ما فعلتن واطوا *** فكن في الاجياد
فتسلين واستعرن جميعاً *** من قميص الدجى ثوب حداد

ثالثا: قصة الحمام:

يروي العرب أنَّ الحمامة هي التي كانت دليل نوح ورائده، وقد منحها الله تعالى جزاء إفادتها نوحًا بالموضع الذي يكون مرفأً للسفينة تلك الحلية والزينة المتمثلة في الطوق الذي في عنقها. وقد صاغ أمية ابن أبي الصلت ذلك شعرًا في قوله (داميلي، 2019، ص. 4):

وارسلت الحمامة بعد سبع ** تدل على المهالك لا تهاب
تلمس هل ترى فى الأرض عيباً ** وغايته من الماء العباب
فجاءت بعد ما ركضت بقطف ** عليه الثاط والطين الكباب
فلما فرسو الآيات صاغوا ** لها طوقا كما عقد السحاب

رابعاً: الصدى او الهامة:

زعم العرب أنَّ الصدى، وهو ذكر البوم، يسكن القبور، وقالوا: هو طائر يقال له "الهامة"، وزعموا أنَّه يخرج من رأس القتيل إذا لم يؤخذ بثأره، فيقول: «اسقوني، اسقوني»، حتى يؤخذ بثأره، وفي هذا يقول ذو الإصبع العدواني:

يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي ** أضربك حيث تقول الهامة: اسقوني؛ اسقوني

هنا يهدد الشاعر عمروًا بالقتل إن لم يكفَّ عن سبه وشتمه، حتى تجعل الهامة تصبح على قبره تطلب الثأر له.

خامسًا: أسطورة السوانح والبوارح:

السانح هو ما أتاك عن اليمين أو يمينك، والبارح هو ما أتاك عن اليسار أو يسارك، وأصل الأسطورة أنَّ العرب إذا أرادوا الخروج للسفر أو التجارة أو غير ذلك، كانوا يقومون بزجر الطيور وإثارتها، فما تيامن منها وأخذ ذات اليمين سموه: سانحًا، وما تياسر منها سموه: بارحًا؛ فإذا كان الطير سانحًا تفاءلوا ومضوا في أمرهم، وإن كان بارحًا تشاءموا منه، ورجعوا عما عزموا عليه من الخروج، وفي ذلك يقول ذو الرمة (داميلي، 2019، ص5):

خليلي لا لاقيتما ما حيثما ** من الطير الا السانحات واسعدا

يدعو الشاعر هنا لصديقيه بأن لا يريا في حياتهما إلا الخير والسعادة، ورمز إلى ذلك بالطيور السوانح.

المطلب الثاني: ذكر الطير في الشعر الجاهلي

كثر حضور الطير في الشعر الجاهلي، ونحن وإن خصصنا الحديث هنا للشعر الجاهلي، إلا أنَّ الكلام سينسحب لاحقًا إلى الطير في أشعار العرب في الحقب التالية، طالما أنَّه ظل يسيطر على وجدان الشعراء على مر الأزمان.

ومن الطيور التي وردت في الشعر الجاهلي ووظفت لأغراض الشعراء ما يلي:

أولاً: طائر الحمام:

تحاول رسًما من سليمى دكا دكا ** خلاء تعفيه الرياح سواهكا
تبدل بعدى من سليمى واهلها ** نعاما ترعاها وادماً ترائكا
ووقفت به أبكى بكاء حمامة ** أراكية تدعو الحمام الاواركا
إذا ذكرت يوما من الدهر شجوها ** على فرع ساق أذرت الدمع سافكا

(الهاشمي، 2014، ص23)

كان للحمام حضور كبير في الشعر الجاهلي؛ فقد امتاز بالصوت الجميل غناءً ونوحًا وترجيعًا يحرك في النفس شجنًا وعاطفةً؛ مما جعل الشاعر الجاهلي يوظفه في التشبيب والنسيب؛ ولعلنا نلاحظ ذلك في قول عبيد بن الأبرص حينما وقف على أطلال سلمى، فبكى مقارنًا حاله بحمامة رآها تشجو وتبكي.

وفي ذات المعنى يقول الشاعر أبو ذؤيب الهذلي إنَّه سمع صوت حمامة تغرد وتبكي ألمها، فهاج شوقه وحبه، يقول (الهاشمي، 2014، ص23).

تدعو الحمامة شجوها فتهيجني ** ويروح عاذب شوقي المتأوب

وعلى نفس الشاكلة تُحكى الخنساء تذكّرها لأخيها صخرًا عند سماعها شدو حمامة وغناءها؛ فأخذت هي تبكي عليه وتنهمر دموعها؛ وممَّا زاد ألمها وحزنها أنَّ أخاها قد مضى مقتولًا ولا سبيل لها لرؤيته؛ تقول (الهاشمي، 2014، ص24):

تذكرت صخرًا إذ تغنت حمامة ** هتوف على غصن من الأيك > تسجع
فظللت لها ابكي بدمع حزينة ** وقلبي مما ذكرتني > موجع
تذكرني صخرًا وقد حال دونه ** صفيح وأحجار وبيداء > بلقع

في الأبيات السابقة تتضح دلالة اقتران البكاء والنواح أو الشجن والحزن بذكر الحمام في الشعر العربي؛ إذ يثير في بكائه ونوحه شجونهم، ويذكي فيها جذوة نار البعد ولوعة الفراق، ويبدو أنَّ كثرة ذكر الحمام ترجع إلى أنسه بالناس وأنس الناس به.

ثانيًا: طائر الغراب:

أكثر العرب أيضًا من ذكر الغراب في شعرهم الجاهلي؛ بل ربطوه بالتشاؤم والتطير؛ وهو كثيرًا ما يدل على فراق الأحبة ونأيهم عن ديارهم؛ ولذلك وظف الشاعر الجاهلي الغراب في سياق التشاؤم، يقول النابغة الذبياني (الهاشمي، 2014، ص24):

زعم البوارح أن رحلتنا غدا ** وبذلك خبرنا الغراب الأسود
لا مرحبًا بغد، ولا أهلًا به ** إن كان تفريق الأحبة في غدِ

فالغراب هنا يؤكد فراق الأحبة وابتعادهم عن ديارهم، وهذا ما تكرهه العرب، وفوق ذلك كرهها للون الأسود، أي لون الغراب، وعلى العموم فإنَّ العرب تكره رؤية الغراب؛ لأنَّه ينذر بالموت والبلاء.

ثالثًا: طائر البوم:

كانت العرب تنظر إلى البوم على أنَّه طائر الشؤم، فتتشاءم به وتنفر من صوته. وهو طائر يظهر ليلًا وله صوت مخيف، وقد رُوي أنَّ الخليفة المأمون رأى رجلًا يكتب بالفحم على حائط القصر، فطلب إحضاره، فأُحضر إليه، وكان قد كتب:

بأقصر جمع فيك الشؤم واللؤم ** متى يعشش في أركانك البومُ
يوم يعشعش فيك البوم من فرحى ** أكون أول من ينعيك مرعومُ

وعند سؤال الخليفة المأمون للرجل عن سبب الكتابة، أوضح أنَّه معدوم وجائع، فتمنى الخراب للقصر حتى يجد فيه خشبًا أو مسمارًا يبيعه ويتقوّت بثمنه، فأمر له المأمون بألف دينار يأخذها كل عام. فورود البوم في هذه الأبيات دلالة على الشؤم والخراب.

رابعًا: طائر النعام:

لم يكن النَّعام استثناءً من جملة الطيور التي أوردها الشاعر الجاهلي في وصف أغراضه التي اشتملت عليها بيئته بمختلف تكويناتها الجغرافية ومخلوقاتها. والشاهد أنَّ النعامة تميّزت بأربع صفات غدت شائعة كثيرًا عنها، أولها طول الساقين، فالسرعة، واللون الأسود، ثم شدة الخوف. فقد تناول الشاعر في أوصافه الهيئة الجسمانية للنعامة وأعضاءها كالساقين من حيث الطول والانتصاب والرقة مع القوة، كما يتضح ذلك جليًّا في وصف امرئ القيس لفرسه في قوله (الشنقيطي، 2014، ص36):

له أيطَّلا ظبيٍ وساقًا نَّعَّامَةٍ ** وإرخاءُ سِرحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ

فهو هنا يشبه ساقَي الفرس بساقَي النعامة في الطول والانتصاب بجامع القوة في كليهما. كما ضمّن الشاعر الجاهلي في تشبيهاته الوصفية سرعة النعام في العدو، يقول لبيد بن ربيعة العامري في مقارنة عقدها مع حمامة (الشنقيطي، 2014، ص114):

ترقى وتطعن في العنان وتنتحي ** ورد الحمامة إذ أجدَّ حمامُها

فالشاعر هنا يشبه سرعة النعامة بسرعة طيران الحمامة إذ كانت عطشى. وفي ذات السياق يقول الشاعر الحارث بن حلزة (الشنقيطي، 2014، ص174):

بزفوفٍ كأنَّها هِقْلَةٌ ** أُمُّ رِئالٍ دويةٌ سَقْفاءُ

يذكر الشاعر أنَّه يستعين على إمضاء همّه وقضاء أموره عندما تشتد الخطوب بناقة شديدة السرعة في سيرها كسرعة النعامة أمُّ الأولاد التي دائمًا ما تهب مسرعة في سيرها لبلوغ أولادها في مكانهم.

وثالثة الأثافي هي التشبيه باللون الأسود، وخاصة لون الظليم، وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة (الشنقيطي، 2014، ص115):

تأوي له قلص النعام كما أوت ** حَزَقٌ يمانيةٌ لأعجم طمطم

فالشاعر لبيد في هذا البيت يشبه الظليم في سواده بالراعي الحبشي الأعجمي الأسود، كما يشبه قلوص النعام بالإبل اليمانية بجامع السواد فيها، هذا فضلًا عن فقدان النطق لدى الراعي الحبشي الذي أوت إليه الإبل اليمانية، وكذا الظليم الذي أوت إليه صغائر النعام، والشاهد أنَّ العرب تستقبح اللون الأسود وتعيبه.

أما الصفة الرابعة فهي شدة خوف النعامة حتى أصبح يُضرب بها المثل لذاك الرجل الجبان الذي تروعه الأمور التي تواجهه ولا يصمد حيالها، بيد أنَّنا كثيرًا ما نجده يبدي شجاعة عندما يكون في مأمن من عدوه، يقول في ذلك الشاعر عمران بن حطان:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامةٌ ** ربداءُ تجفل من صفير الصافرِ

هكذا غدت تلك الصفات المذكورة لازمة للنعام، وما فتئت الألسن تلوكها على مر الأزمان.

خامسًا: طائر العقاب:

وهو من كواسر أو جوارح الطيور، قوي المخالب، حاد البصر، تقول الخنساء (الهاشمي، 2014، ص. 69):

فاتت به أسيل الآسنة ضامر ** مثل العقاب غدت مع الوكر

فهي هنا تحرّض قومها على الأخذ بثأر أخيها صخر، وتصف سرعة الرمح بالعقاب حين يهب من وكره، وقد كثر ورود العقاب في الشعر العربي للدلالة على سرعته وقوته.

سادسًا: طائر النسر:

وهو من الجوارح؛ حاد البصر، قوي الجسم؛ له منقار طويل وأظفار دقيقة؛ وهو يتغذى بالجيف.

يقول عنترة بن شداد مفتخرًا بشجاعته وفتكه بأعدائه وعدم المبالاة بمن يشتمونه في عرضه (الشنقيطي، 2014، ص167):

إن يفعلا فقد تركت أباهما ** جزر السباع وكل نسر قشعم

يقول إنَّه لا يستغرب من شتم هؤلاء له، فإنَّهما يفعلان ذلك ردًّا على قتله أبيهما، حيث تركه جثةً مقطعةً تقتاتها السباع والنسور المسنّة؛ ولا ريب أنَّ ذكر النسر هنا يدل على قوته، كما هو الحال مع العقاب.

سابعًا: طائر الصقر:

هو أيضًا من الجوارح؛ يُستخدم في الصيد؛ وهو مشهور بحدة البصر؛ يقول زهير بن أبي سلمى (الهاشمي، 2014، ص. 40):

يكن بالحباري إن أُصيبت فمثلها ** أصيب؛ وإن تفلت من الصقر تسلح

يصف الشاعر هنا من يظلم الناس ويأخذ حقوقهم، ويحاول النجاة من نقمة الناس، بحال الحُبارى مع الصقر إذا هجم عليها؛ فالصقر أيضًا يمتاز بالقوة والشدة، مثله مثل الجوارح الأخرى.

وبجانب الطيور المعنية التي سبق ذكرها، فإنَّ الشاعر الجاهلي ذكر الطير على وجه العموم، كما في قول امرئ القيس (الشنقيطي، 2014، ص. 35):

وقد اغتدي والطير في وكناتها ** بمنجرد قيد الأوابد هيكل

فالشاعر يذكر هنا أنَّه يخرج مبكرًا في طلب الرزق والصيد، بينما تكون الطيور لا تزال في أعشاشها؛ مع العلم بأنَّها معروفة بالبكور والغدو في طلب الرزق، غير أنَّنا نجد هنا الشاعر يسبقها في ذلك المسعى.

قد ورد هذا المعنى أيضًا في قصيدة الشاعر علقمة الفحل في قوله (الهاشمي، 2014، ص21):

وقد أغتدي والطير في وكناتها ** وماء الندى يجري على مذنب

أي أنَّه يخرج مبكرًا في طلب الرزق مع سيلان ماء الندى من ورق الأشجار والروض.

وقال شاعر آخر (الهاشمي، 2014، ص. 21):

كأنّي نصل بلا مقبض ** أو طائر ظل بلا وكر

وهنا يصف الشاعر نفسه أنَّه أصبح لا معين له ولا سند، كالسيف الذي لا مقبض له، وكالطير الذي لا وكر له.

وفي ذات السياق العام وصف امرؤ القيس جماعة من الطيور في وادي الجواء بالسكر، نظرًا لكثرة حركتها وارتفاع أصواتها في التغريد في حالة من الجلبة والاضطراب، كحال من تملكه الخمر وأفقده السكر وعيه؛ فالشاعر يرى أنَّ طيور وادي الجواء في حالها الصاخب هذا كأنَّما سُقيت خمر العنب المفلفل صباحًا، يقول (الشنقيطي، 2014، ص. 41):

كأن مكاكي الجواء غدية ** صُبِحت سلافًا من رحيق مفلفل

المطلب الثالث: دلالات مخاطبة الطير في الشعر الجاهلي

وصلًا بالدلالة الوجدانية الرومانسية التي صيغت أشعار الشعراء كما ذكرنا سابقًا، فإنَّ أشكال التعبير الوجداني قد تنوعت في خطاب الشعراء للطير بثًّا لأحاسيسهم، وتحريكًا لمكامن الشجن والحب والحزن في قلوبهم، ومن هنا جاءت مخاطبة الشاعر للطير في مواقف مختلفة ما بين مناجاة ومناداة وحوار، كما سنبين على النحو التالي:

أولًا: المناجاة:

والمناجاة تعني الإسرار والإفصاح بما في القلب من أسرار ومشاعر وتخصيص بهذا المكنون، وكان الشعراء يبثون ذلك للطير علّه يشاطرهم شجونهم أو يوصل رسائلهم إلى ديار حبيباتهم، إلا أنَّهم يتشاءمون عند رؤية الغراب؛ لأنَّه في نظرهم مبعث الشر وداعٍ إلى فراق الأحبة.

ومن نماذج مناجاة الطير قول عنترة بن شداد مناجيًا الغراب (الهاشمي، 2014، ص. 53):

غراب البين مالك كل يوم ** تعاندني وقد أشغلت بالي
كأنِّي قد ذبحت بحد سيفي ** فراخك أو قنصتك بالحبال
بحق أبيك داوِ جرح قلبي ** وروِّح نار سرى بالمقال
وخبر عن عبيلة أين حلّت ** وما فعلت بها أيدي الليالي
فقلبي هائم في كل أرض ** يقبّل أثر أخفاف الجمال

في هذه الأبيات يظهر عنترة حزنه لفراق محبوبته عبلة، ثم يخاطب الغراب ويناجيه عن سبب معاندته الدائمة له، وكأنَّه يومًا قتل فراخه أو اصطاده هو بالحبال، كما يستحلفه بالله أن يجلب له أخبار محبوبته عبلة؛ لأنَّه في أشد الشوق إليها، مما جعله يقبّل آثار أخفاف الجمال التي أقلّت عبلة عنه وفارقته.

وقد جعل الشوق والوجد الشديدان أن يطلب عنترة من الغراب أن يغيّر طبعه من نقل أخبار الفراق والبين إلى نقل أخبار اللقاء.

ثانيًا: المناداة:

استخدم الشاعر الجاهلي أيضًا أسلوب النداء في مخاطبة الطير للتعبير عن أحاسيسه ووجدانه، ولعلنا نلحظ ذلك بجلاء في قول الشاعر كليب بن ربيعة التغلبي مخاطبًا قبرة (الهاشمي، 2014، ص. 53):

بالكِ من قبرة بمعمري ** لا ترهبي خوفًا ولا تستنكري
قد ذهب الصياد عنك فابشري ** ورفع الفخ فماذا تحذري
خلا لك الجو فبيضي واصفري ** وانقري ما شئت أن تنقري
فأنت جاري من صروف الحذر ** إلى بلوغ يومك المقدر

فالشاعر هنا يطمئن القبرة ويخاطبها بأنَّها في مأمن وحصن، فلا تخشى أو تهاب أن يصيب بيضها وعشها أذى، طالما هي في حمايته، بل سيطول عمرها ولا يصيبها ما قد يكون سببًا في هلاكها، فعليها أن تهنأ بزوال خطر الصياد عنها، فيمكنها أن تبيض وتنقر الحب ما شاءت، وتملأ حولها بطيب الصفير، وتكون هكذا في أمان إلى أن يوافيها الأجل المحتوم. فنلاحظ هنا أنَّ الشاعر طالما هو مرتاح النفس وهادئ البال، فإنَّه يطمئن القبرة أن تكون كحاله، فلا تقلق ولا تخاف ضررًا يصيب بيضها أو هلاكًا يحل عليها.

ثالثًا: المحاورة:

رغم أنَّ أسلوب المحاورة لم يكن من اهتمامات الشاعر الجاهلي، إلا أنَّ هناك القليل من الأشعار التي ورد فيها ذلك الأسلوب في العصر الأموي، حيث بثَّ الشعراء شكواهم وهمومهم للطير في أسلوب قصصي قلما شاع في المجتمع العربي، ومن أمثلة أسلوب محاورة الطير في الشعر ما قاله مجنون ليلى في حب محبوبته (الهاشمي، 2014، ص. 53):

شكوت إلى سرب القطا إذا مررن بي ** فقلت ومثلي بالبكاء جدي
أسرب القطا هل من معير جناحه ** لعلي إلى من قد هويت أطير

فجاوبتني من فوق غصن أراكة ** ألا كلنا يا مستعير معير
وأي قطاة لم تعزك جناحها ** فعاشت بضر والجناح كسير

صور الشاعر في هذه الأبيات صدق مشاعره تجاه محبوبته، ليلى، وفقده لها، وقد أحسن الشاعر كثيرًا عندما صاغ قصته مع سرب القطاة الذي مر به وهو هائم في إحدى البراري، إذ ابتدر السرب بخطابه طالبًا إياه بمساعدته في طلبه، وهو إن تعيره إحدى القطا جناحها ليطير به إلى دار محبوبته بسرعة دون مشقة وعناء في السفر. ولحسن الحظ أجابه جميع القطا وهم وقوف على غصن الشجرة أراك بأنَّهم سيوفون بطلبه ويعيرونه الأجنحة حسبما زعم.

وأنَّهم على استعداد لنجدته وعونه على ما هو عليه من لهفة إلى لقاء محبوبته، وأكدوا له أنَّ أي قطاة لا تعيره جناحها سوف يدعون عليها بأن يصيبها الضرر ويُكسر الجناح حتى لا تستطيع الطيران.

ومن جانبه أكد الشاعر للقطا أنَّه يعول عليهم كثيرًا في إيصال رسالته إلى محبوبته، وبالتالي يكون لزامًا عليه بذل الشكر الجزيل لمن أعانه في التواصل مع المحبوبة. فدلالة الحوار هنا هي الشوق والحنين الذي تملّك الشاعر وعكّر استقراره.

المطلب الرابع: دلالات ذكر الطير في شعر العصر العباسي:

رغم التجديد الذي شهده العصر العباسي، حيث دخلته بعض الموضوعات، مثل: البديع والاستعارة وما إلى ذلك، إلا أنَّ الشاعر العباسي لم تسقط اهتماماته بالطير واستخدامه في التعبير عن مكنوناته النفسية وأشواقه تجاه من يهواه. فقد كان الطير لسانه ووسيلته للتعبير عن وجدانه، ولم ينقطع الشاعر العباسي عن مناجاة الطير ومناداته ومحاورته في عموم مخاطبته إيّاه، كما يتضح ذلك في النماذج التالية:

أولًا: المناجاة:

يقول أبو فراس الحمداني وهو يناجي حمامة حطت على غصن قرب سجنه الذي أُلقي فيه الروم أسيرًا (الهاشمي، 2014، ص53):

أقول وقد ناحت بقربي حمامة ** أيا جارتا هل تشعرين بحالي؟
معاذ الهوى ما ذقتِ طارقةَ النوى ** ولا خطرت منكِ الهموم ببال
أتحمل مخزون الفؤاد قوادمٌ ** على غصن نائي المسافة عالِ
إيْ جارتا ما أنصف الدهر بيننا ** تعالي أقاسمك الهموم تعالي
أيضحك مأسور وتبكي طليقةٌ ** ويسكن محزون ويندب سالِ

لقد كنتُ أولى منكِ بالدمع مقلةً ** ولكن دمعي في الحوادث غالِ

فالشاعر هنا يخاطب الحمامة التي كانت تنوح على الغصن بجوار سجنه، وسألها عمّا إذا كانت تشعر بحاله وما يكابده من عناء الأسر وألم الفراق والبعد عن الأحبة، ويتمنى لها البراءة والعصمة من العذاب الذي حل به؛ لأنَّها لو عرفت ذلك أو ذاقت مرارته لما جاءت لتنوح على الغصن الذي بجوار محبسه، فهي الآن تعيش طليقة، ويتمنى أن تقاسمَه همومه ومعاناته أو يقاسمها هي الحرية والانطلاق، وأنَّه ليعجب لعلو نفسه أنَّه يضحك وهو مأسور في السجن، وهي تبكي وتنوح وهي حرة طليقة! فهو يخبرها بأنَّه أولى منها بالبكاء والنواح؛ فمن حقه أن يبكي فقدان الحرية ومرارة الأسر، ولكن له نفسًا أبية تأبى الذل ولا تتضعضع أمام المصائب مهما عظمت.

ثانيًا: المناداة:

يقول أبو بكر الصنوبري في رثاء ابنته ليلى، وقد بلغ منه الحزن والهم مبلغًا كبيرًا (الهاشمي، 2014م، ص. 53):

ألا أيها القمري كم ذا ** تغرد في الرواح وفي البكور
أجدك تشتكي جزعًا وتبكي ** لمفقود كبير أو صغير
فقِع في باب قنسرين فانظر ** إلى جزع النساء على القبور
نساء في حداد صائحات ** كغربان تائح في الوكور
ينادين الأحبة في صخور ** وكيف يجيب من تحت الصخور
ينحن وما ينحن شبيه ليلى ** وينحرن الدموع على النحور
أبت رويا السرور عيون قوم ** رأوا ليلى تسير على سرير
سأبكي ما بكى القمري بنتي ** ببحر من دموعي بل بحور
ألست أحق أن أبكي عليها ** إذا بكت الطيور على الطيور

لما سمع الشاعر الصنوبري القمرية تبكي وتنوح على فقد حبيبها، أنكر عليها هذا البكاء والتشكي، وطلب منها أن تذهب إلى قنسرين حيث قبر ابنته ليلى، لترى الحزن والبكاء الحقيقي الذي يصدر من النساء النائحات الحزينات حول القبر، كاجتماع الغربان وصياحها في وكورها. فقد أخذت النساء من شدة الحزن والتفجع يطلقن النداء للأموات تحت الصخور والتراب، ولكن بلا جدوى، إذ لا يجيب من تحت التراب. ولشدة اللوعة والحزن أكد الشاعر أنَّه سيبكي ابنته ببحور من الدموع لا تنقطع، بل يحسب أنَّ أي بكاء على حبيب ليس كبكائه على ابنته ليلى. نعم، يبكي الصنوبري على ابنته، إلا أنَّ مجتمعه وإلى عهد قريب من زمنه كان يعيب البكاء على النساء، فهل خرج الصنوبري على المألوف؟ أم أنَّ تغير الأزمان وشدة وقع الحدث هو سبب الحزن والبكاء المفرط للصنوبري؟

المطلب الخامس: دلالات ذكر الطير فى شعر العصر الحديث:

لم ينقطع تعلق الشاعر العربي بالطير على مدى العصور المختلفة وتوظيفه للتعبير عن مشاعره وأغراضه المختلفة. فمثلما كان في العصر الجاهلي وما تلاه من عصور، فقد استخدم الشاعر العربي الطير في العصر الحديث للتعبير عن بعض الأغراض أو الدلالات، مثل الحب والجمال، والحزن والخوف، والتحرير والشجاعة والفخر والحرية، والإيمان بالله، ولا بأس أن نتناول بعضًا من هذه الأغراض:

أولًا: الحب والجمال:

عبّر الشعراء في هذا العصر عن عواطفهم وأحاسيسهم مستغلين الطير وسيلة لذلك، فها هو الشاعر إبراهيم طوقان، يخاطب طائر البلبل، الذي يتميز بعذب غنائه، وقد حط على غصن شجرة يغني بصوت حنون، فناداه: يا أخا الصوت الحنون، لست تدري ما شجوني، أنت في راحة وأنا أتَلَظّى بنار حب حبيبي البعيدة، فقط سأسعد يوم لقائها. فلما سمع البلبل شجوه وبكاءه طار إليه وطلب منه الإصغاء إلى غنائه العذب، ولكن الشاعر رفض وطلب من البلبل أن يتركه في حاله ويعود إلى دوحه ويغني؛ لأن سعادة الشاعر ستكون فقط عند لقاء محبوبته، ولعل البلبل يشاطره النوح على المحبوبة؛ لأن ذلك أشجى وأطرب لقلبه.

يقول طوقان (طوقان، 1955، ص. 20):

بلبلٌ فوق الغصون ** ساحرٌ جمُّ الفنون
يا أخا الصوت الحنون ** لست تدري ما شجوني
تتسلى تتغلى ** وتراني أتغلى
فرحتي يوم أراها ** ونعيمي في شقائي
سمع البلبل شجوني ** باكيًا أيام الهوى
فهفا البلبل نحوي ** هاتفًا: اصغِ لشَدْوي
قلت يا بلبل دعني ** عُد إلى الدوح وغنِّ
نُحْ معي فالنوح أولى ** بعد من أهوى وأحلى
طرب القلب وملأ ** أيها البلبل هَلّا

1- إبراهيم طوقان، ديوان طوقان:

عشق الشاعر عبدالله محمد عمر البنا البادية، حيث موطنه في بادية البطانة السودانية، لذا كثر وصف حياة البادية في شعره، وقصيدته (البادية) خير دليل على ذلك، إذ شغف بجمالها وحب مظاهرها المختلفة، منها غناء الجواري وشدو الطيور مما يملأ الحياة حيوية وفرحًا، فقد صوّر شاعرنا

البنا امتزاج غناء الجواري عشاءً مع شدو الحمام في معزوفة شيقة تملأ النفس سرورًا وابتهاجًا. يقول: (شعبة اللغة العربية ببخت الرضا، 1968، ص16–17):

وإن غنت جواريها ابتهاجًا ** شدا بجوانب الأيك الحمام

أما الشاعر محمد سعيد العباسي فقد شغف هو الآخر بجمال الطبيعة ورونقها، فكان ذلك واضحًا في شعره، بل لم ينس إدراج الطير في قصائده وتوظيفه للتعبير عن أحاسيسه، كما تجلى ذلك في قصيدته مليط، إذ ذكر الورقاء أو القمرية الرمادية وهي تشجو بالألحان الطروبة على أغصان الأشجار الوارفة، يقول (شعبة اللغة العربية ببخت الرضا، 1968، ص. 19):

والورق تهتف والأظلال وارفة ** والريح تدفع ميادًا لمياد
فاقتادت اللب مني قود ذي رسن ** ورقاء أهدت لنا لحنًا بترداد

فمدينة مليط تمتاز بالجمال، تكسوها الخضرة ويكثر فيها المطر وتحيطها الأشجار الكثيفة الباسقة، حيث تحط على أغصانها الوارفة طيور القماري وتشجو بأعذب ألحانها الرتيبة المتصلة التي تسلب الألباب وتحرك الوجدان، مما جعلها تقود شاعرنا العباسي طوع البنان، كما يقاد البعير بحبل الرسن.

ثم انظر شاعرنا أحمد شوقي ينظم في جمال (دمشق) التي كانت عنده روح وجنات وريحان، ومن ضمن مظاهر الجمال في دمشق ذكر شوقي الطير وشجوه الألحان العذبة على غصون أشجارها الراسية جوار الأنهر ومجاري المياه، يقول (شعبة اللغة العربية ببخت الرضا، 1968، ص. 19):

والطير تصدح من خلف العيون بها ** وللعيون كما للطير ألحان

وهنا يمتزج خرير الماء وشدو الطير محدثًا لحنًا طروبًا يسلب الوجدان ويشعل العواطف.

وحسب الشاعر إيليا أبو ماضي توظيفه للطير في التعبير عن جمال الحياة في آفاق التفاؤل وحلاوة المستقبل في مقابل عتمة الرؤية وكآبة النفس المتشائمة التي لا ترى في الحياة غير التعاسة والشقاء، فالحياة الجميلة الممتعة لا يدركها إلا المتفائلون، يقول في قصيدته (كن جميلًا ترَ الوجود جميلًا):

أدركت كنهها طيور الروابي ** فمن العار أن تظل جهولًا
ما تراها والحقل ملك سواها ** تتخذ فيه مسرحًا ومقيلًا
تتغنى والصقر ملك الجو ** عليها والصائدون السبيلًا
فهي فوق الغصون في الفجر تتلو ** سور الوجد والهوى ترتيلًا
وهي طورًا على الثرى واقفات ** تلتقط الحب أو تجر الذيولًا

كلما أمسك الغصون سكون ** صفقت للغصون حتى تميلا
فتعلم حب الطبيعة منها ** واترك القال للورى والقيلا

هكذا يخاطب أبو ماضي ذاك المتشائم أن يدرك تلك الحياة كما أدركتها الطيور الراسية في الروابي، تشدو ألحان الفرح وترفل في جمال الحياة، ولا تخشى المخاطر والمصاعب، بل دعاه أن يتعلم منها حب الحياة وجمالها، غير آبه بأقوال الآخرين والعوارض والمثبطات.

وعمومًا ظل الإنسان يكن للطير أسمى مشاعر الحب والتقدير لما لديه من شجو عذب يريح النفس ويخفف الآلام والأحزان، لذا بقي إعجابه بالطير حبًّا لا يخبو له أوار، وقد عكس الشعراء ذلك نظمًا جميلًا يليق بصدق تعلق الإنسان بالطير، وقد أحسن أحد الشعراء حين قال (شعبة اللغة العربية ببخت الرضا، 1950، ص. 19):

أيها الطير المغني ** ألف شكر لك مني
أنت قد أذهبت حزني ** أنت قد أطربت أذني
يزهر الغصن وينمو ** حين تشدو فوق غصن
ويفوح الزهر طيبًا ** كلما صحت بلحن
أنت من آيات ربي ** أيها الطير فغنِّ

ثانيًا: الحرية:

الحرية قيمة نبيلة يحتاجها أي مخلوق في فترة حياته، مثل حاجته إلى الهواء والمأكل والمشرب، فالحرية لا تقبل القيود والحدود وكل ما يعكر جمال الحياة، ويمنع الاستمتاع بما في الطبيعة من جمال، وما في الكون من روعة وجلال، وكثيرًا ما عبّر الشعراء عن رفض القيود وحرمان الحرية عمن قدر له أن يجثو على صدور الناس ويمنع حريتهم بشتى الوسائل، وشاعرنا أبو القاسم الشابي من الشعراء الذين ناضلوا في سبيل الحرية والحياة السعيدة لشعوبهم، ورغم ما ذاق الشابي من أصناف الألم والكبت على يد الاستعمار الفرنسي الذي كان يحتل تونس، وما أصابه من مرض، إلا أن ذلك لم يزده إلا قوة.

سأعيش رغم الداء والأعداء ** كالنسر فوق القمة الشماء

(شعبة اللغة العربية ببخت الرضا، 1972، ص27)

فالشاعر في هذا البيت يفصح عن معاناته الألم ويشكو إحاطة الأعداء به، ولكنه، رغم ذلك، لن يستسلم للألم والمرض والعدو، بل سيتغلب على كل ذلك وسيحلق هنالك بعيدًا وكأنه النسر عاليًا.

وكأنه كالنسر فوق القمة الشماء الفارطة في العلو والارتفاع. لا شك أن الشاعر هنا يكشف عن علو همته وثقته بنفسه، وقد استخدم النسر هنا لتأكيد هذه المعاني لما للنسر من دلالة على القوة والرفعة.

وفي ذات المنحى النضالي من أجل الحرية، يذكر الشابي في قصيدته (سبيل الحياة) أن الإنسان خلق حرًّا، ولذا يجب أن يحيا طليقًا كما الطيور تموج حرة في السماء:

خلقت طليقًا كطيف النسيم ** وحرًّا كنور الضحى في السماء
تغرد كالطير أنى اندفعت ** وتشدو بما شاء وحي الإله

ووصلًا للحديث عن الحرية وأهميتها لكافة المخلوقات، فقد انبرى شعراء آخرون، فإننا لا نزال نجد بعض الشعراء يوظفون الطير للتعبير عن ذلك، مع العلم بحاجة الطير للتحليق الحر في فضائه، إذ من الحرام أن يُحصر بين أركان محدودة لا يطيب فيها نفسًا ولا يرتاح بالًا، فها هو أحد الشعراء ينظم نشيدًا لتلاميذ المدارس الأولية في هذا الإطار:

قد كان عندي طائر ** في قفص من خشب
ظريف شكل ريشه ** حلو طويل الذنب
وهو يغني دائمًا ** بصوته المحبب
ولم أكن أمنعه ** من مأكل أو مشرب
ففر عني ومضى ** بدون أدنى سبب
وقال: لي حريتي ** لا تشترى بالذهب

(شعبة اللغة العربية ببخت الرضا، 1950، ص. 12)

في هذا النشيد يعلي الشاعر قيمة الحرية بهدف ترسيخها في عقول التلاميذ في هذه المرحلة الدراسية المبكرة ليشبوا على العلم بأهميتها لهم ولغيرهم على مدى الحياة.

وبجانب الشابي فقد انبرى لتحرير أفريقيا شعراء آخرون لمقاومة الاستعمار بأشعارهم، فها هو الشاعر محمد محمد علي يعبر عن فرحته بتحرير أفريقيا من براثن الاستعمار الأوروبي، فرمز لذلك بالطير في قصيدته (أفريقيا الجديدة):

يقول:

وشدا على الأغصان كل مغرد ** خضل الجناح هديله يترقرق

(شعبة اللغة العربية ببخت الرضا، 1972، ص20)

ما أعظم فرحة الإنسان الأفريقي حين انفك من أغلال المستعمر وسار حرًّا طليقًا في بلاده، كيف لا، وقد نال ذلك بشجاعته وقوته، إذ لم يكن رعديدًا يكبل خطوه ثقل الحديد.

وبذات رمزية الطير عبّر الشاعر محمد مفاتح الفيتوري عن ابتهاج الإنسان الأفريقي بنيل الحرية والاستقلال في قصيدته (الحصاد الأفريقي) بقوله:

وإذا الفجر جناحان يرفان عليك ** وإذا الماضي الذي كحل هاتيك المآقي

(نصار، 1980، ص52)

ثالثًا: حب الأوطان:

لا خلاف في أن حب الوطن من القيم العظيمة التي تبعث العزة والكرامة في النفوس. فالوطن هو المكان الذي ينتمي إليه كل منا، وفيه الأهل والأصدقاء، ولأجل نهضته ورفعته نبذل الجهد والوقت، كما نبذل الأرواح دفاعًا عنه في الحروب ضد المعتدين. وقد أكد شوقي ذلك في قوله:

وللأوطان في دم كل حر ** يد سلفت ودين مستحق

وقد عبّر الشاعر أحمد شوقي أيضًا عن حب الوطن في قصيدته "الوطن" التي نظمت في شكل حوار بين عصفورتين حلتا على أفنان أيكة في رياض الحجاز وبين نسمة ريح عابرة هبت من اليمن السعيد. أشْفقت نسمة الريح على حال العصفورتين البائس في بقعة الأرض تلك المقفرة، قليلة الماء وشديدة الحر، فطلبت من العصفورتين حملهما معه إلى اليمن، حيث المياه العذبة اللذيذة كالعسل وحيث الحبوب الحلوة كالسكر، إلا أن العصفورة الذكية منهما ردت بفطنة على نسمة الريح بصورة قاطعة أنهما يحبان وطنهما وأنهما لن تبدلا أرضهما المقفرة القاسية بأرض أخرى، ولو كانت جنة على الأرض.

يقول شوقي:

عصفورتان في الحجاز ** حلتا على فنن
في خامل من الرياض ** لا ند ولا حسن
بينا هما تنتجيان ** سحرًا على الغصن
مر على أبكيهما ** ريح سرى من اليمن
حيا وقال: درتان ** في وعاء ممتهن
لقد رأيت حول صنعاء ** وفي ظل عدن
خمائلًا كأنها ** بقية من ذي يزن
الحب فيها سكر ** والماء شهد ولبن

لم يرها الطير ولم ** يسمع بها إلا افتتن
هيا اركباني نأتها ** في ساعة من الزمن
قالت له إحداهما ** والطير منهن الفطن
يا ريح أنت ابن السبيل ** ما عرفت ما السكن
هب جنة الخلد اليمن ** لا شيء يعدل الوطن

(شعبة اللغة العربية ببخت الرضا، 1972، ص46)

ويؤكد شوقي في مكان آخر أن حب الوطن وتقديسه فطرة خُلق بها الإنسان، وأن الإنسان مهما شغلته الشواغل أو أغوته المغريات، فإن نفسه دائمًا تتوق إلى الوطن وتجذبه جذبًا إليه، إذ ليس لديه ما يعلو على الوطن أو يعكر حبه إياه، وإن كانت جنة الخلد في الأرض، يقول:

وطني لو شغلت بالخلد عنه ** نازعتني إليه في الخلد نفسي.

رابعًا: شعر الإيمانيات:

يقصد بشعر الإيمانيات ذاك النوع من الشعر الذي نظمه شعراء العصر الحديث للإشارة إلى بعض الكيانات والمظاهر التي تدل على قدرة الله على الخلق، فمثلًا: الشجر، والشمس، والضياء، والحرارة، والبرودة، والليل، والنهار، وغيرها تقف دليلًا واضحًا على قدرة الله وعلو شأنه، كما تدل هذه الأشعار على أن الله علّم بعض المخلوقات وهيأ لها القدرة على القيام ببعض الأفعال الذاتية التي لا يمكن نسبتها إلا إلى قوة أعلى لا تضارعها تلك المخلوقات، وحسنًا فعل أحد الشعراء في توجيه السؤال إلى مخاطبه للتأمل في بعض المظاهر الكونية والبحث مليًّا في من أوجدها وهيأ لها القدرة على القيام بنشاطها، يقول:

من علم العصفور أن ** يبني عشًا في الشجر
محصنًا شيده ** بغير ماء أو حجر
من علم البلبل أن ** يتلو أصوات الهناء
يطرب كل سامع ** بكل لحن وغناء
من علم النحل أن ** الزهر أصل للعسل
تظل طول يومها ** تجمعه بلا ملل
من علم النمل أن ** تجمع في الصيف الطعام
تخزنه في حجرها ** لوقته على انتظام
الله قد علمها ** ذاك وأعطاها الهدى
وهو لكل مرشد ** ولكل خير أبدًا

(شعبة اللغة العربية ببخت الرضا، 1959، ص23)

حسنًا أورد الشاعر تلك الأنشطة الدالة على قدرة الله، فها هو الطير يصنع عشه من غير ماء أو طين أو حجر، وذلك البلبل يصدح باللحن الطروب، وتلك النحلة ترشف الزهر فتصنع منه العسل الحلو اللذيذ، ثم تنشط النملة صيفًا فتجمع قوتها فتخزنه لوقت الحاجة في الخريف، كل هذه الأنشطة بهدى الله وتعليمه لهذه المخلوقات، فهذا غيض من فيض، أما تساؤلات الشاعر فلا تنم عن جهل وإنكار عما استفهم عنه، وإنما هو إقرار وتعظيم من عبد موقن بقدرة الله وفضله على مخلوقاته، وهذا المعنى أيضًا أكده شاعر آخر في قوله:

من مد للطير جناحيه فطار ** يلقط الحب يغذي الصغار
هذا صنيع الله رب العالمين ** وخالق الإنسان من ماء وطين

(شعبة اللغة العربية ببخت الرضا، 1950، ص19)

خامسًا: الفخر والشجاعة:

وهذا غرض قديم من أغراض وخصائص الشعر العربي، وهو دائمًا يتميز بتمجيد البطولات والانتصارات، وعرض كريم الخصال وجليل الأفعال، وها هو الشاعر محمود سامي البارودي يفخر بشجاعته ويقول:

له غدوات يتبع الوحش ظلها ** وتعدو على آثارها الطير تنعب

(شعبة اللغة العربية ببخت الرضا، 1968، ص34)

أي أن الوحوش والطيور دائمًا ما تتعقب سبيله صباحًا أملًا في أن تقتات من جثث أعدائه لما ينزله عليهم من تقتيل وفتك، وهذا النوع من الشعر أشبه بأشعار شعراء العصور السابقة أمثال عنترة بن شداد وأبي فراس الحمداني. وفي ذات المنحى سار إيليا أبو ماضي، فيذكر أن الطيور على درجة عالية من الشجاعة في مواجهة مصائب الحياة ومشاكلها، لذلك نجدها في حقول الآخرين اتخذت لها مسارح وأماكن للعيش والشدو والغناء، ولا تخشى خطر اصطياد الصقور لها في الجو أو البشر في الأرض.

يقول إيليا أبو ماضي:

ما تراها والحقل ملك سواها ** تتخذ فيه مسرحًا ومقيلًا
تتغنى والصقر قد ملك الجو ** عليها، والصائدون السبيلا

(شعبة اللغة العربية ببخت الرضا، 1972، ص17)

فتلك سمات من فاضت قلوبهم شجاعة وهانت أمامهم العوائق والمصائب.

سادسًا: حذار الخداعين:

الحياة مليئة بالمخادعين المفسدين، ففي سبيل تحقيق مآربهم يستخدمون شتى الفنون والوسائل للاحتيال على الآخرين والمكر بهم، فتارة يلتحفون ثياب الوعظ الديني، وتارة أخرى ينسجون أساليب النصح ومساعدة الآخرين، وغير ذلك من أساليب المكر والخداع. يتجلى هذا بوضوح في قصيدة «الثعلب والديك» التي نظمها الشاعر أحمد شوقي، إذ حكى فيها قصة خداع الثعلب وتدثره بثياب الوعظ الديني والعمل على هداية الناس ودعوتهم إلى التوبة والزهد والامتناع عن أكل الطير، وعلى ذلك أرسل إلى الديك يومًا رسولًا يطلب إليه المجيء ليؤذن فيهم لصلاة الصبح، إلا أن الديك أدرك مكيدة الثعلب التي تهدف إلى الانقضاض عليه، فاعتذر للرسول وطلب منه أن يبلغ الثعلب بأنه عرف من حكمة وتجارب جدوده ونصائحهم أن ليس للثعلب عهد ولا يوثق فيه، وأن من يظن ويثق في الثعلب فهو مخطئ:

ويقول الشاعر:

برز الثعلب يومًا ** في ثياب الواعظينا
فمشى في الأرض يهدي ** ويسب الماكرينا
ويقول: الحمد لله ** إله العالمينا
يا عباد الله توبوا ** فهو كهف التائبينا
وازهدوا في العيش إن ** العيش عيش الزاهدينا
واطلبوا الديك يؤذن ** لصلاة الصبح فينا
فأتى الديك رسول ** من إمام الناسكينا
عرض الأمر عليه ** وهو يرجو أن يلينا
فأجاب الديك عذرًا ** يا أضل المهتدينا
بلغ الثعلب عني ** عن جدودي الصالحينا
من ذوي التيجان ممن ** دخل البطن اللعينا
إنهم قالوا وخير الـ ** قول قول العارفينا
مخطئ من ظن يومًا ** أن للثعلب دينا

(شعبة اللغة العربية ببخت الرضا، 1950، ص21)

فهذه القصيدة تعلمنا أهمية الذكاء وحسن التصرف، وكذلك الصدق في الأقوال والأفعال، وأن خداع الناس للأبد أمر مستحيل.

ولا نزال في بحر قصص الاحتيال والخداع حتى يسوق لنا شاعر آخر في «قصيدة الغراب والثعلب»، قصتهما وقد تلوث كل منهما بدنس الاحتيال وأكل الحرام، ويروي الشاعر أن الغراب خطف قطعة جبن من دار قوم ذوي يسار وغنى، فطار وحط على غصن شجرة ليهنأ بأكلها.

فإذا بالثعلب يراه فسال لعابه، وخبرته نفسه الطامعة على الاحتيال والاستئثار بقطعة الجبن، فسعى لخطفها من الغراب، فهمّ بمدحه والتودد إليه وطلب منه أن يصدح بغنائه العذب، إذ طالما اشتاق إليه وافتقده لعام كامل، فاستجاب الغراب لطلبه، وما إن فتح الغراب فمه ليبدأ بالغناء حتى سقطت منه قطعة الجبن ووقعت في فم الثعلب مباشرة، فالتهمها، فأخذ الغراب في العويل، فضحك الثعلب عليه لغبائه وضعفه، ناصحًا إياه ألا يصدق دائمًا كل ما يقال له، بل عليه أن يعمل عقله ويفكر مليًّا قبل الإقدام على أي عمل، أكثر من ذلك، قال الثعلب للغراب إنه لم يظلمه أو يجني عليه في حقه، بل عامله بالمثل؛ لأن الغراب كان قد خطف قطعة الجبن من الإنسان، فقام الثعلب بنفس الفعل وخطفها من الغراب فأكلها.

وبأسلوب غاية في الحكمة قال الثعلب للغراب: إن الذي أخذ بغير وجه حق لا ينفع صاحبه، إذ يذهب الحرام من حيث أتى، فالغراب والثعلب سيان في جرم الاحتيال وأكل السحت.

تدلنا هذه القصيدة على ضرورة الفطنة والتريث في الأمور تفاديًا للأخطاء التي يعقبها الندم والخسران، كما يجب الامتناع عن أخذ ما ليس لك؛ لأن في ذلك حرمة، وأنه لن يبقى معك فتهنأ به، فإنه سيذهب مثلما جاء، بقول الشاعر:

رأى الغراب جبنة في الدار ** لبعض قوم من ذوي اليسار
فسل منها قطعة وطار ** كأنه قد ملك الإمارة
وحينما حط على إحدى الشجر ** رآه ثعلب فأحدق النظر
فلمح الجبن فاحتال علي ** اختطافها منه بها تيك الفلا
قال له: يا محسن الغناء ** ومخجل الطيور والظباء
لي سنة أطلب أن أراكا ** لأسمع الجميل من غناكا
فهل تجود بالغناء يا سيدي ** وتروي القلب بعذب المورد
فامتثل الغراب قول الثعلب ** وصار يشدو بالغناء المطرب
فأوقع الجبنة من منقاره ** غنيمة باردة لجاره
ففرح الثعلب وانتشلها ** بفمه وبعد أن أكلها
ناداه: يا غراب ما ظلمتكا ** بمثل ما عاملت قد عاملتكا
سلبت إنسانًا عليك ما اعتدى ** وما فعلت اليوم تلقاه غدًا
والمال لا يخرج من كف الفتى ** إلا من الباب الذي منه أتى

(شعبة اللغة العربية ببخت الرضا، 1950، ص22–23)

نتائج الدراسة ومناقشتها:

اتضح من خلال الدراسة التنوع البيّن في دلالات استخدام عنصر الطير في الشعر العربي ومعانيه؛ فقد استخدم الشعراء الطير في دلالات كثيرة ومتنوعة على امتداد عصوره المختلفة. ففي العصر الجاهلي، ارتبط ذكر الطير بالمعتقدات الخرافية التي كانت سائدة آنذاك؛ فمن ذلك قصة الهدهد والقنزعة التي في رأسه، والتي تمثل قبر أمه، وقصة الحمامة التي كانت دليل النبي نوح ورائده إلى الأرض اليابسة، فكوفئت بالطوق الذي يزيّن عنقها، وغير ذلك من القصص الأسطورية.

وبجانب القصص الخرافية، ورد الطير في الشعر للتعبير عن التشبيب العاطفي، وشدة اللوعة والحزن على الميت، وكذلك في شعر التشاؤم والتطيّر، الذي جسّده طائر الغراب والبوم في أغلب المواضع.

أما الطيور الجوارح، مثل العقاب والنسر والصقر، فقد وردت للدلالة على الشدة والقوة. غير أن المفاهيم الخرافية والغزلية التي سادت في العصر الجاهلي قد انتفت أو قلّت إلى حد كبير في العصر الإسلامي، مع أن الشاعر لم يفتأ، في العصر العباسي، يستخدم الطير في التعبير الوجداني على نحو أرقّ مما كان عليه في الحقب السابقة.

وعلى هذا النحو، ظل الشاعر العربي في العصر الحديث متعلقًا بالطير، موظفًا إياه في التعبير الوجداني، والنضال من أجل الحرية والاستقلال، وحب الأوطان، بالإضافة إلى التعبير الإيماني والخضوع لقوة الله الخالق الجبار. وقد تجلّى التعبير العاطفي في أشعار إبراهيم طوقان، وعبد الله محمد عمر البنا، ومحمد سعيد العباسي، وأحمد شوقي، وإيليا أبي ماضي، إلا أن هذا العصر الحديث تميّز بنظم الشعر النضالي الباحث عن الحرية والاستقلال والانعتاق من القيود الاستعمارية.

ومن الشعراء الذين برزوا في هذا الصعيد، ولاقوا شديد المعاناة ومرارة التعب، الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي، الذي مثّل بالنسر القوة وعلو الهمة، وكذلك الشاعر محمد مفتاح الفيتوري، ومحمد محمد علي، وغيرهم. وقد استوحوا جميعًا رمزية الطير في التعبير عن الحرية، التي هي للحياة كالماء والهواء؛ فالحرية ضرورة لكل المخلوقات، بما فيها الطير. وما قصيدة «الطائر والقفص» إلا خير شاهد على ذلك.

واتساقًا مع شعر الحرية، برز شعر حب الأوطان وتقديسها والدفاع عنها بالأرواح والمهج؛ فالوطن عزيز وغالٍ، لا يُستبدل بغيره مهما عظم، وهذا ما أوضحه أحمد شوقي في قصيدته «جوار العصفورتين مع الرياح في أرض الحجاز».

وبجانب التعبير الوجداني، لم يخلُ الشعر الحديث من بعض أغراض الشعر الجاهلي، ولا سيما الفخر والشجاعة، رغم قلة نسبتها؛ إذ كثيرًا ما تنشأ هذه الأغراض مع الحروب والنزاعات. فكما فعل عنترة بن شداد قديمًا، ها هو الشاعر محمود سامي البارودي يفتخر بشجاعته، فيذكر الطيور والوحوش التي تتعقب سبيله لتقتات من جثث أعدائه. وبدرجة أخف، يرقى إيليا أبو ماضي في فخره بشجاعة الطيور، وهي تمرح وتغني في مسارح الحقول، دون أن تخشى خطر الصقور الجارحة ومكائد الصيادين.

ونظم شعراء العصر الحديث أيضًا في بيان قدرة الله التي تجلّت في مختلف مخلوقاته، وبديع أفعاله وعظيم صنعه فيها، كما هو الحال في الطير في بنائها أعشاشها، والنحل في صناعتها العسل من الزهور، وقدرة النمل على تخزين الطعام في الصيف لوقت الحاجة في الخريف، وهلمّ جرًّا. وكل ذلك ما كان ليتم لولا إلهام الله وتعليمه إياها؛ فالله هو الفاعل أصلًا، وإن بدا الصنيع ظاهرًا من تلك المخلوقات.

ولما كانت الدنيا تعجّ بأساليب المكر والخداع والفساد، جاءت الحكمة، في المقابل، لتحذير الناس من المخادعين والمفسدين والظالمين، الذين يستخدمون، في أحايين كثيرة، مختلف الأساليب لاقتناص ضحاياهم وتحقيق أغراضهم. فما أكثر من يلتحفون ثياب الوعظ الديني، ويلونون أساليب الاحتيال والخداع، وحسنًا نظم شعراء العصر الحديث أشعارًا تحذّر الناس من هؤلاء المخادعين والمفسدين، وتدعو إلى توخي الفطنة والتريث في الأمور، تفاديًا للأخطاء التي تورث الندم والخسران، وكذلك الامتناع عن أخذ حقوق الغير.

وقد تلخّص ذلك كله في قصيدتي «الديك والثعلب» و«الغراب والثعلب»، إذ تحثّان المرء على انتهاج أهدى السبل التي ينال بها رضا الناس، وفوق ذلك ثواب ربه.

قائمة المصادر والمراجع:

1. السوقي، فرج عبد السلام، وآخرون. (1985م). النصوص للمرحلة الإعدادية، الجزء الأول. ليبيا: المنشأة العامة للنشر والإعلان.
2. الشنقيطي، الشيخ أحمد أمين. (2014م). شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائنا. صيدا – بيروت: المكتبة العصرية.
3. طوقان، إبراهيم عبد الفتاح. (1953م). ديوان طوقان. بيروت: دار الشروق.
4. نصار، حسين، وآخرون. (1980م). الأدب والنصوص للصف الثالث الثانوي. الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية.

5. الهاشمي، حمد بن علي حمد الفقيه الحسني. (2014م). مخاطبة الطير في الشعر العربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري [رسالة ماجستير غير منشورة في الأدب والنقد]. جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.
6. شعبة اللغة العربية ببخت الرضا. (1950م). كتاب الأناشيد والمحفوظات للصف الرابع الابتدائي. الخرطوم: دار النشر التربوي.
7. شعبة اللغة العربية ببخت الرضا. (1972م). كتاب الأناشيد والمحفوظات للصف الخامس الابتدائي. الخرطوم: دار النشر التربوي.
8. شعبة اللغة العربية ببخت الرضا. (1972م). كتاب الأدب والنصوص للصف الثالث المتوسط. الخرطوم: دار النشر التربوي.
9. شعبة اللغة العربية ببخت الرضا. (1968م). كتاب المحفوظات للسنة الثالثة الوسطى. الخرطوم: مكتب النشر التربوي.
10. شعبة اللغة العربية ببخت الرضا. (1968م). كتاب المحفوظات الوسطى للسنة الرابعة الوسطى. الخرطوم: المطبعة الحكومية.
11. شعبة اللغة العربية ببخت الرضا. (195م). كتاب الأناشيد والمحفوظات للصف الثالث الابتدائي. الخرطوم: دار النشر التربوي.
12. مجلة حوليات التراث. (2019م). العدد (19). مستغانم: جامعة مستغانم.